

فى رحيل مؤرخ أمين : رؤوف عباس سبج ضد التيار!

القاهرة - صلاح الببلى

ببلىو 2008

"ببلى للمؤرخ" .. عبارة من كلمتين تلخصان الموقف العام من المؤرخين فى كل عصر! فإن كتب أحدهم مادحاً السلطان هوجم واتهم بخدمته وإن اتخذ صف الشعب لن يرضى كل الأطراف. وإن لاذ بالصمت اتهم بالتعالى على الناس والأحداث نائياً فى برجه العاجى وإن ألقى بشهادته بوضوح وقسوة ومرارة كما فعل مؤرخنا الراحل فى الخميس 26 ببلىو "حزيران" د. رؤوف عباس عندما كتب سيرته الذاتية قبل أربع سنوات ونشرها بعنوان "مشيناها خطى" انقلبت عليه الدنيا ووصل به الحال لساحات لمحاكم اختار "مدينة العاشرمن رمضان" سكناً بعدما تخفف من أعبائه العائلية والجامعية وراح ببشد هو وزوجه الهدوء والراحة بعيداً عن صخب العاصمة ..!

كان د. رؤوف عباس الراحل عن 70 عاماً مزيجاً من الصبر والجدل والصراحة والمقاومة المستمرة لكل ما يراه ضد الصوبل والمنطق، ومن هنا اكتسب الأصدقاء كما اكتسب عداوة آخرين. ولد لأسرة فقيرة وكان والده يعمل "عاملاً فى السكة الحديد" فى بورسعيد. وانتقل للعيش فى كنف جدته بشبرا. وبغزيمته تغلب على صعوبة وقسوة النشأة وتسلل إلى الجامعة ودفعه طموحه للدراسة فى اليابان، ثم استقر فترة فى العاصمة القطرية "الدوحة" وعاد إلى القاهرة ليستكمل معاركه.. تحت قبة الجامعة وفى "الجمعية التاريخية المصرية" التى رأسها فترة من الوقت وعلى صفحات الصحف. لم يقف متجرراً ولم يلد بالصمت ولم يهادن فيما رآه صواباً وكان إحدى زهور باقة من المؤرخين المصريين الأكاديميين الذين خرجت مشروعاتهم خارج أسوار الجامعة لتشتبك وتؤثر وتتفاعل مع المجتمع من أمثال: "د. ببلىو لبببب رزق وهو ود. عاصم الدسوقى ود. قاسم عبده وآخرين .."

السيرة الذاتية

قصّ د. رؤوف عباس سيرته الذاتية بصراحة شديدة أفضت به لذكر ما يراه آخرون من نواقص النشأة الفقيرة والعوز الشديد. فلم يخل من فقره ولم يحط نفسه بسياج من الكبرياء المزيف ولم يتفنن فى فصل الذاتى عن الموضوعى. وهذه الطريقة فى كتابة السيرة الذاتية بفضل ما هى كاشفة وأمينة فإنها صادمة للبعض الآخر فمن يقولون بفصل الذاتى عن الموضوعى وإن بدا ذلك مستحيل! فقد أفرد أديبنا ومنتقنا العربى الكبير د. طه حسين فصلاً فى سيرته الذاتية "الأيام" حكى فيها نشأته الفقيرة بلحدى قرى المنيا بالصعيد وسوء التعليم الأزهرى الذى كان مضراً إليه وكشف كم الزيف والنفاق الاجتماعى الذى يسكن فى جوف قاعات الدرس والغرف الأنيقة. وفعل نفس الشئ د. لويس عوض فى مذكراته ود. عبد الرحمن بدوى ومحمود شاكر ود. زكى نجيب محمود وفعل ذلك الكتّاب الصحافيون من مصطفى أمين وقبله الشيخ على يوسف صاحب للمؤيد" والمثقف الكبير عباس محمود العقاد وصولاً إلى محمد حسنن هيكل وموسى صبرى. وفى الأدب كما فى التاريخ يكشف كتاب "رأيت رام الله" للشاعر الفلسطينى مريد البرغوثى حجم المأساة الفلسطينية أكثر آلاف المرات مما تكشفها عشرات الخطب السياسية الطنّانة. وفى السياسة "حدث ولا حرج" .. عشرات المذكرات السياسية المتناقضة لمشاهير الساسة وحواريهم فى كل عصر !

ولكن يظل الحكم على المؤرخ أشد ضراوة فـ "هيكل" مثلاً فى كل ماكتبه كان حريصاً على نفى صفة المؤرخ عن نفسه وكان يعتز بأن يصف نفسه بأنه "جورنالجي" أما "هيردوت" لأن فعلية اعتراضات. وكذلك كتبة "كتاب الموتى" الفرعونى المجهولون. وأيضاً "أبو الفرج الأصفهاني" صاحب كتاب "الأغانى" والمتهم بالتشيع. مروراً بـ "ابن تيمية" و"الشوكانى" و"الشعرانى" و"ابن تغرى بردى" و"ابن إياس" وصولاً لـ "الجبرتي" .. نادراً ما يسلم مؤرخ من نقد لاذع إن لم يكن من جانب الشعب عادة فمن جانب السلاطين أحياناً. واستياء السلاطين يترجم إلى قطع الأرزاق والرقاب !

كانت مذكرات د. رؤوف قد لاقت هجوماً عنيفاً من بعض مناوئيه وعلى رأسهم المؤرخ الراحل د. عبد العظيم رمضان الذى شنّ نقداً لاذعاً على المذكرات وصاحبها .

النشأة

ولد د. رؤوف فى الرابع والعشرين من أغسطس "أب" 1939 فى مساكن عمال السكة الحديد فى بورسعيد لأب ورث عن والده جذوره الصعيدية وعمله المتواضع فى السكة الحديد. ولأم بورسعيدية من أصول دمياطية يعمل والدها "بامبوطى" ولظروف عمل والده تنقل مع أسرته إلى "العجروود" بين الإسماعيلية والسويس حتى 1943 ثم إلى القاهرة ومنها إلى "أوسيم" بالجيزة حتى رقى الأب لوظيفة "ملاحظ بلوك" ونقل إلى طوخ بالقليوبية سنة 1951. ولاينسى مؤرخنا حياته مع جدته فى حى شبرا بالقاهرة ويوم أن سقط من الطابق الثانى ليهوى على رأسه فى صحن البيت فأصيب بكسر فى الفك الأيسر لم ينتبه إليه أحد إلا بعد نحو خمس سنوات من الحادث ترتب عليه عدم استطاعته فتح فمه باتساع طبيعى وأورثته هذه العاهة متاعب نفسية شديدة خاصة فى فترة المراهقة !

ولادة وعيه

ويروى د. رؤوف اشتراكه فى المظاهرات الطلابية والعمالية وتفتح وعيه على هموم الوطن منذ حرب فلسطين 1948 وكان إذا انفضت المظاهرات عاد سيراً على الأقدام لـ "عزبة هرميس" حيث تسكن جدته إلا وتصب عليه لعناتها لأنه يسير فى طريق الضياع باشتراكه فى المظاهرات مع "العيال البطالين" !

أساتذته

ويعنى أيقص كيف تسلل إلى الجامعة ودبر أمر المصاريف بأعجوبة وتحايل على قدره المعاند وعوزه واحتياجه يتوقف عند أساتذته من أمثال: "مصطفى الشكعة وحسين مجيب المصرى ويوسف أبو الحجاج ودولت صادق ومحمد رياض وحليم تادرس وعلى رشيد الناضورى ومحمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد على وأحمد فخرى وسعيد عاشور" ويتوقف بشكل خاص عند أستاذه الذى أثر فيه بشدة وهو العالم الراحل د. أحمد عبد الرحيم مصطفى الذى كان عائداً لتوه من لندن بعد حصوله على الدكتوراه نابذاً المسلمات ما لم يقد الدليل العقلى على صحتها وقائلاً إن الحقيقة التاريخية ليست كاملة وإن الموضوعية نسبة.. كان الكلام جديداً على أذهان الطلاب ومن يومها اتخذ د. رؤوف قدوة له وحدد هدفه فى دراسته التاريخ الحديث .

القطاع العام

ويفضح بعض الزيف داخل القطاع العام عندما التحق بوظيفة "مراجع حسابات" بالشركة المالية والصناعية المصرية بكفر الزيات براتب 11جنيهاً شهرياً. وهو مبلغ محترم آنذاك، وظل يشغل هذه الوظيفة 62 شهراً حتى استقال من الشركة فى أبريل 1967 إثر صدامات متتالية مع "محمد شفيق حنطور" رئيس مجلس الإدارة والممتد بصلته مع "شمس بدران" أحد رموز الفترة الناصرية .

ويعلق د. رؤوف على الحقبة بأنها جسدت البون الشاسع بين الشعارات المرفوعة وما يروونه على أرض الواقع وفى ظل الفساد الإدارى وغياب الرقابة نخر السوس فى عظام القطاع العام !

الحركة العمالية

وكأن القدر وضعه وسط عمال القطاع العام فقرر أن تكون دراساته العليا عن "الحركة العمالية المصرية منذ نشأتها حتى قيام ثورة "23 يوليو 1952" ودعاه هذا الاختيار لمقابلة النبيل "عباس حليم" صاحب الدور فى هذا الاتجاه. و"محمد حسن عمارة" سكرتير عام اتحاد عمال نقابات مصر قبل الثورة و"سيد قنديل" رئيس نقابة عمال الطباعة فى الثلاثينيات والأربعينيات. واتصل بالنقابيين الماركسيين: "محمد يوسف المدرك" و"محمود العسكرى وأحمد طه". وفى خط موازٍ لدراسته كإل قصة حبه لزميلته "سعاد الدميرى" بالزواج سنة 1964.

النشر

ويتوقف د. رؤوف لهنئذاه د. محمد أنيس الذى من خلال مجلسه تعرّف على "أحمد عباس صالح وسعد زهران وإبراهيم صقر وحسام عيسى وحلمى شعراوى وجلال السيد وكامل زهيرى ومحمود أمين العالم" وفتح له الباب للكتابة فى مجلة "الكاتب" وأشركه بقسم الأبحاث بجريدة "الجمهورية" قبل أن يتركها "أنيس" إثر خلاف مع رئيس تحريرها آنذاك فتحى غانم .

ويثنى د. رؤوف على أستاذه د. أحمد عزت عبد الكريم الذى أنقذه من قبضة بعض المسئولين عندما استدعى للتنبيه عليه بقطع صلته "بالمدرک" وإلا تعرض للمتاعب التى لا قبل له بها وأبسطها تعيينه بالجامعة .

السفر لليابان

فى أبريل "نيسان" 1972 يسافر د. رؤوف فى مهمة علمية مدتها عشرة شهور لليابان، وهناك تطور منهجياً وتعمّق فى تاريخ اليابان حتى وضع كتابه: "المجتمع اليابانى فى عصر مايجى 1868-1912" الذى نشر بالقاهرة 1980 كأول دراسة علمية باللغة العربية فى مجالها. كما ترجم كتاب "اليوميات والشهادات" سنة 1975 وطبعه على نفقته الخاصة وهو يكشف حجم الدمار الذى سببه السلاح النووى الملقى على "هيروشيما" سنة 1945 وكان قد ترجم إلى 17 لغة من قبل .

الإعارة لقطر

وفى إعارته لقطر تهيأت له الظروف المناسبة والوقت المتسع ليعدّ الجزء الأول من "مذكرات محمد فريد" للنشر. وأعدّ كتاب "الحركة العمالية فى ضوء الوثائق البريطانية" .. وترجم كتاب "دراسات فى تطور الرأسمالية" لموريس دوب. و"يوميات هيروشيما" لهاتشيا وزار لندن فى إجازته الصيفية للاطلاع على الوثائق البريطانية والتصوير ومنها سنة 1976.

خارج الجامعة

بعد عودته من قطر سنة 1979 عاد لجامعته وامتد نشاطه خارجها كرئيس "وحدة الدراسات التاريخية" بمركز "الأهرام" للدراسات بدعوة من "السيد ياسين" رئيس المركز آنذاك. وداخل الوحدة نشط في إعداد كتب عن : "الثورة العربية - والمصريون والسلطة - والأحزاب السياسية المصرية - والحركة الوطنية في مرحلتها الأخيرة - وحرب السويس بعد أربعين عاماً - وثورة يوليو بعد أربعين عاماً - والثقافة السياسية في مصر". كما رأس "لجنة الضم والاستغناء" بدار الكتب والوثائق القومية. وشارك في إعداد مشروع القانون الجديد للدار. وتولى الإشراف على "مركز تاريخ مصر المعاصر" التابع لدار الكتب المصرية. ولخبر مقررًا للندوة الدولية للاحتفال بالعيد الذهبي لثورة يوليو. وامتد نشاط د. رؤوف إلى مركز الدراسات القانونية والاقتصادية والاجتماعية الفرنسي بالقاهرة. ورغم حصوله على "التقديرية" سنة 2000 إلا أنه سعد أكثر بدعوته كضيف شرف لجمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية في مؤتمرها السنوي بعد كل من: برنارد لويس وجاك بيرك وألبرت حوراني .

ورأس د. رؤوف "الجمعية المصرية للدراسات التاريخية" سنة 1999 بعد أن كان قد انضم إليها سنة 1966 وهي الجمعية التي تأسست سنة 1945 بمرسوم ملكي. واستطاع أن ينمي إيراداتها بتعاون صديقه وزميله د. يونان لبيب رزق معه وبدعم الشيخ د. سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة .

النقد الذاتي

ولعل أخطر فصول مذكراته ذلك الفصل الذي عنوانه بـ "تحت القبة وهم" وهو الفصل الذي كشف فيه عورات التعليم الجامعي ومآسيه وفضح فيه صراعات الأساتذة وتكالب بعضهم على المال قبل العلم وتحول بعضهم لباعة مذكرات وملخصات وانقسام الأساتذة لمعسكرات عدائية واستوزار ثورة يوليو لبعض الأساتذة، مما أدى لتآكل استقلال الجامعة ورواج مشاعر التملق والنفاق والانتهازية والتدافع على المناصب داخل الجامعة أو بوظيفة مستشار ثقافي بالخارج وابتداع آليات لجنى الأرباح كالصناديق والمكافآت واللجان والتلاعب في شروط الإعارة.. كان يظن أن الجامعة بيت الحكمة فكشفت التجربة عن حقيقة أن الجامعة خلية من خلايا المجتمع يعترها ما يعترى المجتمع من عطب وأمراض .

ورغم اعتراف د. رؤوف بأنه كان صنيعة ثورة يوليو ومن أصحاب المصلحة الحقيقية في نجاح برنامجها إلا أنه يعود فيؤكد أنه لم يكن من "دراويش" الثورة الذين يخرطون في "أذكار" المناقب فقط. ويقول إنه تمنى الموت لنفسه قبل أن يرى رئيس مصر . السادات . يعتلى منصة "الكنيسة" بالقدس ويقول أيضاً إنه لم يحسب نفسه أبداً من "النخبة" فهو يجد نفسه وسط البسطاء، كان من "النخبة" بحكم موقعه الجامعي. خلاصة القول.. فقدنا مؤرخاً صادقاً مع نفسه. أميناً مع الآخرين.

http://www.alwatanalarabi.alqanat.com/arabi/more_details.asp?Sub_ID=3613&Section_ID=5